هذا انت

بقلم : يوسف جوهر

كان ينظر من الشرفة الى شجرة فى الطريق . وكره الشجرة .. انها دائمة جافة جرداء العصون فى الصيف والشتاء .. وتمنى كما تمنى من قبل لو تهوى عليها فاس وتقطعها عندما اشتمت انفه رائحة القهوة . وعاوده ان روحته فريدة التى تمشى بخطوات لامعوت لها قادمة بالصينية والفناجين واستعداد لاستقبالها وهو يحس ان بينها وبين الشجرة شبها . الحياة معها لاطعم لها .. انه احيانا يشرب قهوته وهو يرتدى ملابسه ثم لايدرى ان كان شربها حقا الا عند العودة الى الفنجان والنظر فى قاعه .. كذلك هى .. ينظر اليها ولكنه يراها من الذاكرة .. عشر سنين رواح كافية لكى يحفظها عن ظهر قلب .. صورة وصوتا .. ليس من الضرورى أن يسمعها لكى يعرف انها تتحدث اليه عن ذلك الالم فى جسمها .. أو عن حذاء الولد الذى بلى .. أو عن شكوى البنت من مدرسة تضايقها .

وهو يستطيع أن يسمع بان الشاى على مائدة الفطور سيكون خفيفا . وسيحتج كما يفعل دائما .. وانها ستلومه لانه ينفض رماد سيجارته فى اى مكان الا الطفطوفة التى وضعتها امامه ، ولكنه لن يتوب .

.. ثم قبلة وداع عذاب ، وليس حارة ولا باردة .. الولد والبنت يلصقان امام باب البيت فى انتظاره .. سيوصلهما الى المدرسة سيرا على الاقدام تحقيقا من نفقات الاتوبيس .. روحته تقول له كلما ضاق بهذا : « انه يوفر لنا شيئا ويوفر لك صحتك .. وربك بدا يريد .. وهو لايستطيع ان يعترض

فانها تقاسمه المشقة .. هي التي تدهب لتصحيحها من المدرسة بعد الظهر .

طبعة انت باعزيزة ولكنك سقتني في طريق التقشف وانا لاادري .. وقد قطعت فيه شوطا بعيدا . بعد المهد بيني وبين كل مرة .. عدتها واحد ان تدخر كل قرش لسدد قسط البيت الذي أقامته لنا الجمعية التعاونية .

وعندما تذكر القسط فضل ان يمشي الى مقر عمله .. خاصة لما ادركه الكمساري في زحام الصباح . ولكن ذلك يحدث في احترامه لنفسه حدث طبيعيا .. وقد كثرت الحدوش الطبيعية .

انه رئيس حسابات الشركة .. والثواب يفتح له المصعد باحترام يوحي بانه قادم في سيارته الخاصة او على الاقل في تاكسي .. وعندما يصل المصعد الى الطابق الذي تحتله الشركة يهرع اليه الساعي ليحمل حقيبته الانيقة .. والموظفون يحيونه باحترام .. وسكرتيرته وحاء تقف حالما تراه وعلى محياها ابتسامة طيبة .

ولكنه يعرف انه لا هو ولا حقيبته يستحقان هذا الاحترام كله .. فان في الحقيبة الى جوار الملفات الهامة جريدة قديمة ملفوفة على بعض الشطائر ، لانه لايعود الى بيته في الظهر . بعض ايام الاسبوع .

وقد قال لنفسه انه يكره المطاعم .. وبشك في اتباع الطهاة اصول النظافة .. واخفى عنها انه يفعل ذلك لاسباب اقتصادية .

حدوش طفيفة ليس آخرها انه لايخرج علبة سجائره ليدخن الا اذا راى السيجارة مشتعلة بين انامل صديقه .. ولايطلب له القهوة الا وهو متهمك في حديث تليفوني او في النظر الى ورقة . لكي يسعى في عمار اشتهاله الالحاح في الدعوة .. حاشا ان يفعل ذلك عن عمد وتدبير فانه صار ملكه وطبعا لايحاسبه عليه احد ولكنه يحاسب نفسه حسابا دقيقا احيانا .. ويلتهب احيانا مثل الجلد المصاب بالحكة مايكاد صاحبه يلمسه حتى يهيج .

حادث صغير حمله اليوم يهرش ذاكرته .. عندما يطلب اليها ان تهدأ وتتمكن . رفع سماعة التليفون وقبل ان يطلب الرقم سمع ضحكة ناعمة تتدفع صوتا رقيقا يتحدث .. وأدرك ان خطه متشابك بخط آخر .. وهم أن يعيد السماعة الى مكانها ولكنه تريث ، فان الحديث كان جذابا ، يغري بالفضول .. الضحكة الناعمة كانت تعد صوتا جذابا يسأل لقاء عاجلا .. خشونة آمرة مغلفة بذلك التوسل الذي يطيب للانثى .. أنثى تتسع ذلك التسع الذي يحمل حين الرضا .

وتتفصل الخطوط المتشابكة .. وتختفي هذه الاصوات المترعة بالسعادة ويجد احمد السماعة في يده وقد نسي الرقم الذي كان موشكا ان يطلبه ..

تمنى لو انه كان ذلك الرجل الذي يرجو ويتوسل .. لو انه هدف ذلك الصيد الرقيق .. وحك رأسه وهو يبتسم لفضاء الحجرة ابتسامة كبيرة .. ولكن ابتسامته أصابت تحت قبعة رأسه ذلك العرق الذي يتصل بالذاكرة .. وهاجت خواطره .

في الايام الخوالي كانت له هو ايضا مواعيد رقيقة .. وكان يستطيع أن يدير راس الفتاة التي يريد بالقول

المفسون ... دان من قبس حلاوة
الملذات في الحب .. العاطفة التي كان
يشعها الوصال كانت لهذا ثم تموت
.. يعني أن تسالم لكي تكون عاشقا
حقا .. وان تجد في حلقك الغصة التي
دفعت فرتر الى الانتحار بعد موت
شارلوت .. مع فارق بسيط انه ليس
من الضروري أن تنتحر في عصرنا هذا.
يكفي أن تمرض من الحب .. وحسبك
هذا دليلا على ان قلبك حي ينبض .

وتنهد أحمد وهو يتذكر زوجته
فريدة .. كانت أحلى مغامراته ..
عندما كان يسمع صوتها في التليفون
كانت عروقه كلها تتحول الى اسلاك
متصلة بصوتها .. مالعروقه الآن قد
أصابها التصلب ، وصارت موصلا رديئا
للارسال والاستقبال .. سحقا لهذه
الحياة الرتيبة .. الولد عاد من المدرسة
مرتفع الحرارة هل استدعى الدكتور
ياأحمد .. احتك زنة تريد ان تروح
مساء الخميس على فالنمك الموعد .
ليس عندنا شيء للعشاء احضر معك
بعض السجق ..

دخل عليه الساعي وصوت زوجته
يطن هكذا في اذنه .. رفع رأسه وتصور
لحظة ان زوجته هي الموجودة داخل
ملابس هذا الساعي .. انها مولعة
بالخدمة .. خدمة الآخرين .. انها
نسي نفسها في بيتها ، ولاتمنح نفسها
الا القليل .. حقا ان الزواج شركة ..
ولكن التعب هو البضاعة الوحيدة
الموجودة على رفوف الشركة .. شركة
على بابها لافتة علاها الصدأ .. مكتوب
فيها « حياة لاطعم لها » .

ياأحمد يجب أن يكون لحياتك طعم
.. مصطفى وكيل الحسابات يتحدث عن
مغامراته نوعي يطفح بالشر والتفاؤل
.. له كل يوم حكاية مع فتاة .. انه
يصول ويجول في ميدان كنت من فرسانه
.. انت أولى بانتصاراته .. جرب ..
حطم القوقعة التي حبست نفسك
داخلها .

ورفع سماعة التليفون .. هاتف رقم
مازال عالقا بذاكرته .. لم يستعمله
منذ تزوج ..

وأسعده ان درية عرفته ، ورحبت بأن
تراه ..

وذهب الى الموعد بعد أن حلق ذقنه
بعناية ، وتأنق ماوسعه التأنق .

واحمرتاه .. اني جئت يادرية من
أجل شعرك الأشقر .. ماذا صيره
أسود .. أشياء كثيرة فيك صارت
لها سمة جديدة .. حتى الضحك في
عينيك تغير ايضا لونه .. اللون القديم
كان أحلى .. تركت نفسك تنعس ..
أين عودك الهش النحيل الذي كنت
أخاف ان ينكسر تحت ساعدي اذا
حضنته . وسمانة ساقك التي كانت
رائعة صارت حبلى كعضلة مصارع ..
ليتني ماأعتنيت بهندامي وطاردت
بالملقاط الشعرات البيض لكي أكون في
مستوى الموقف .

الموقف محرج يادرية .. ليست
المغامرة التي أهفو اليها .. كل مأملكه
لك ان اسمح شكوالد من الايام .. طلبت
ترقصين الخاطبين .. لأنك وحدتهم
حولة .. طلاب مال أو متعة .. هل
انت واثقة مما تقولين .. سأصبح بعد
قليل احد هؤلاء الحولة .. يشق على
ان أصارحك ان لقاءنا لن يتكرر .
هل يكفي التلميح .. انا الآن زوج يادرية
.. زوج واب أحمل على كتفي حبلا من

المسئوليات والهموم .. كنت أظن أن شبح زوجتي عندما استحضره لك سيفزعك .. ولكنك ثابتة القلب .. تريدين أن ترعى على ظلم زوجه لم ارتكبه منها .. وتحضين الى تحدثي قبل أن أستيقظ .. واليوم لك اني لا افكر في العبث بثقة زوجتي ، ولكنك ترفضين أن تفهمي .

وهل حقا لم افكر في العبث بهذه الثقة ؟!..

وضحك من نفسه .. فقد جاء الى الموعد واهدار هذه الثقة في حسابه .. ولكن استغلال زوجته سلاحا يدفع به دريةجعل اثمه في نظره ، ثمين

ومع ذلك لم يعد به هذا الشعور الى منطقة الضمير .. ان دريةقبل أن تذهب قدمت له ، من حيث لاتدري اقتراحا بالمغامرة التي يصبو اليها .. فقد تحدثت عنوا عن سهام .. وكيف أن الرجال لايصدون الا منيلاتها من الفتيات العابثات .

في اليوم التالي طلب سهام في التليفون .. عرفت صوته في الحال بعد كل هذه السنين .. شحنته ذلك بالثقة واطربته انها فرحة بحديثه .. وتأنى لكي تطلب هي الموعد .. وعندما فعلت تراودته لذة خفية في أن يصدها .. انه لمتع أن يكون المرء سيد الموقف .. وبعد أن وضع السماعة بدأ يلوم نفسه .. كيف مضت كل هذه السنين من غير أن يرى سهام .. في الماضي كانت تطارده .. كانت مجنونة به .. ولكنه كان قد دخل منطقة الاتزان ، وكان يدور في فلك فريدة ، الفتاة التي تزوجها من بعد .. ولم يكن ثمة قوة تقدر أن تجذبه .. اما الآن فانه يحس أن قانون الجاذبية معطل عند رس ..

صوت سهام على سلك التليفون مايزال ساخنا مشحونا بالحمراء والرعشة .. كعهده بها في الايام الخوالي لم يكن يطيب لها حضر العذارى ، أنها تمرح في الموق ، كيف انساك .. المرأة لاتنسى ابدا رجلا هرب منها وحرمها متعة أن تكون السادنة بالهجر عند طقس عذا .. عذا بعيد .. لو تلتقي الليلة اكون أسعد » .

ووضع السماعة بيد ترتجف .. مايزال مجنونة ، ولكن مرحبا بالجنون.

الساعة الآن العاشرة صباحا .. الوقت يتسع لتدبير سهرة خليعة بالمعاشة المهولة .. حمل يقلب الصحف ، ، أين تسهر هذا المساء ، الصوان الذي كان نصره يتحطاه دائما يشعر اليوم انه موجه له بالذات .. انه كتب خصيصا من أجله .

وبعد بحث دقيق استقر عزمه على أن يدعو مرفت لي ذلك العشاء الراقص .. ويحك ياأحمد .. التذكرة بخمسة جنيهات .. بالداخل السندوتش تدفع عشرة جنيهات في تذكرتين .. خيل اليه أن الجرس القريش القابع في الرخيص الصغير داخل الحقيبة الانيقة ينظر اليه في جلع .. وقال لنفسه هو يروح من تلك النظرة .. انا مدير حسابات .. صقت ذرعا بالحساب الصغير .. ان هي الا مرة لي تتكرر .. كل الدفاتر مهما تكن منتظمة تقع فيها أغلاط

وطافت برأسه فكرة ارتجف منها لو ان هذا الرخيص الصغير وشى به لزوجته .. أن تضبطه هريدة متلبسا بالخيانة لم تكن شاغله الكبير .. الخيانة

هي نجمة المغامرة وبهجتها ... جزء من متعته أن يتظاهر بعدم كل الذي سيحدث بأنه ملاك .. ولكن الذي يخشاه حقا أن تضبط زوجته هذا السحر في الميزانية عشرة جنيهات كاملة .. انها تعرف مايقبضه بالقرش والمليم .. حقا انه رئيس حسابات ولكن فريدة هي السلطة العليا .. انها الرقابة الادارية .

ومشى الى الموعد وهو يفكر في الطريقة التي سيملي بها ضياع الجنيهات العشرة .. سنسلت يا عزيزتي .. صدقيني عرضة أن يحبس في دين بقفة . عجز في الخزينة عطلته قبل أن تكشف الامر .

ثم زجر مخاوفه .. لماذا يحبس نفسه الآن .. الآن لاينبغي ان يفكر الا في سهام .. ستوافيه في السادسة تماما وسيبقى معها حتى منتصف الليل .. ربما الثانية صباحا .. هذا لن يقلق زوجته .. عودها أن يغيب كثيرا في آخر السنة المالية .. ومن حسن الحظ أن البيت ليس به تليفون يمكنهـــا من تعقبه .

السادسة بالضبط كان مرابطا في بار شيرد ووجهه الى الباب .. وقلب قلبه وسهام قادمة تخطر كالغزال .. الاعوام لم تفعل بها ما فعلته بدربة .. واحتوت الجالسين بنظرة سريعة .. وتخطته بنظرتها ثم جلست بسرعة في مقعد بعيد، بأسرع من محاولته المهوجس لاستقبالها .. واضطر أن يذهب اليهـا وقد حاصره الاستياء ، انها لم تلحظه لاول وهلة .. واستقبلته وهو يتجه اليهـا بنظرة متحفظة .. ثم هتفت وهي تمد له يدها الاستقبل .

ـ لم أعرفك في البداية .. شعـــر ماتغيرت .

ما أحلى هذا اللقاء ... وما أحلى أن يتحدث الى سهام من السادسة الى الثامنة مع كاس أو كاسين من الويسكي .. ثم يذهبان الى ذلك العشاء الراقص ، وفي الراس والقلب نشوة .. جميلة كمـا كنت دائما ياسهام .. لم تزيدي في العمر ولا سنة واحدة .

وتركته يمسك يدها وهما يتحدثان ولكن يدها كانت باردة .. وصوتهـا الذي كان ساحرا في التليفون صـــار دافئا فقط .. ذهب المودة بين أصدقاء قدامى .. حدثني ياأحمد عن أولادك .. عن زوجتك .. هل هي جميلة .. هل انتما على وفاق .. ليس أجمل في الحياة من الوفاق بين زوجين .

وحاول أن يتجنب الحديث عن فريدة ولكنها طلبت تلح فيه حتى أوشـك أن يصرح بها .

ـ ميرتك كانت الجنون .. لا مارب لي في عقلك .

ولكنه آثر أن يصبر قليلا .. وعدل عن الثورة الى القول .. حدثيني عن نفسك ـ .. انسي هنا من أجلك .. لامن أجل زوجتي .

سأقدم لك تقريرا يا أحمد بقدر ما تسعفني الذاكرة .. بعد أن تزوجت أنت وهجرت أصحابنا .. هجرتهم أنا أيضا .. وعملت مضيفة جـــوية .. .. الطوف بالعالم كان وسيلتي لنسى أنسى اشياء كثيرة ..

وحدث نفسه .. عظيم .. هذا عزاء أن بصماتي ماتزال باقية على قلبها .

وتحسس ذكرى العشـاء الراقص في جيبه .. وأثنى على اختياره ـ انهـا حوار مرور سريع الى كل ما يتمناه .

وقطع عليه أفكاره صوتها وهي تقول

ذات رحلة وانا اقدم كوب برتقال في الطائرة لشاب فرنسي امسك بيدي ولم يفلتها حتى تزوجنا .. وعشت حقبة في باريس .. لك ان تفخر أني مسحت الباريسيات . كان اسمي هناك تيريزي .. ولكني صفقت بروبير .. كان عجوزا جدا وكانه شرقي .. وركلت ملابيسه والجوارب .

بعد ربع ساعة كانت قد وصلت الى زواجها الثالث الذي انتهى بطريقة لايد لها فيها .. مات المسكين في حادث تصادم .. وأقسمت ألا تتزوج بعد ذلك ابدا ..

قال لنفسه حسنا .. انتهت من الحديث عن روحتي وعن ازواجها .. جاء دوري .. الارامل يبحثن دائما عن عزاء ويشعلن الرجل الكتوم .

واشار للحرسون طلبا للكأس الثانية احتفاء بالبداية الحقيقية لهذا اللقاء الحلو ولكنها اعترضت وهي تقول له بصوت باغم انها مضطرة أن تنصرف .

كنت اود ياأحمد ان اقضي السهرة معك .. ولكن وانا اتاهب للقائك وصلتني برقية من جون .. جون وصل فجاة الى القاهرة ، وسيقضي فيها الليلة فقط .. انه سينتظر أمريكي يفكر ان يسند لي بطولة فيلم تدور حوادثه في اليابان .. اعطني رقم تليفونك ، سأتصل بك ..

وادرك وهي تدون رقم التليفون انها لن تتصل به فقد كتبته وهي عجول .. لم تحاول التثبت من صحته ، وعندما امسح الحبر على أحد الارقام لم تحاول ان تعيده .

واستكثر أن يقول لها ان في جيبه تذكرتين لن يقدر على شراء مثلهما مرة أخرى .

نظر الى ساعته بعد أن دهمت ستهام انها السادسة والنصف .. مازال يفصل بقية الوقت الذي وهبه للمغامرة .. لم يبق الا أن يذهب الى مكتبه في الشركة كعادته كل يوم .

كل موظفي الحسابات انتهزوا فرصة غيابه ، وكانها فرصة لاتعوض فراحوا ، الا رجاء سكرتيرته .. يالها من فتاة مخلصة لواجبها .

وكان شعر رجاء منسدلا على جبينها وهي منحنية على اوراقها وعندما تنبهت الى قدومه رفعت باحترام وابتسمت وهي شمه شاردة .

وكان يفصل بين حجرته وحجرتها باب متراجع ، وداس الحرس ، ودخلت رجاء وعلى محياها الابتسامة الوديعة التي يعرفها .. انها ليست حسيلة . كانها تعتذر بهذه الابتسامة عن خلو وجهها من الفتنة .

وطلب أحمد منها بعض الاوراق .. ورمق ثوابها وهي منصرفة .. خمس فتاة في العشرين .. لم يعمل ذلك من قبل دائما يحترم مكتبه وعمله .. ولكنه لم يعد الى مكتبه من قبل وفي رأسه كأس الويسكي .. وقال له كأس الويسكي .. غازل رجاء ، وعندما جاءت بالاوراق تاملها من أمام ، كما تاملها من خلف .

ياأحمد لاتضيع الفرصة .. انار لهريمة شرد .. في جيبك تذكرتين

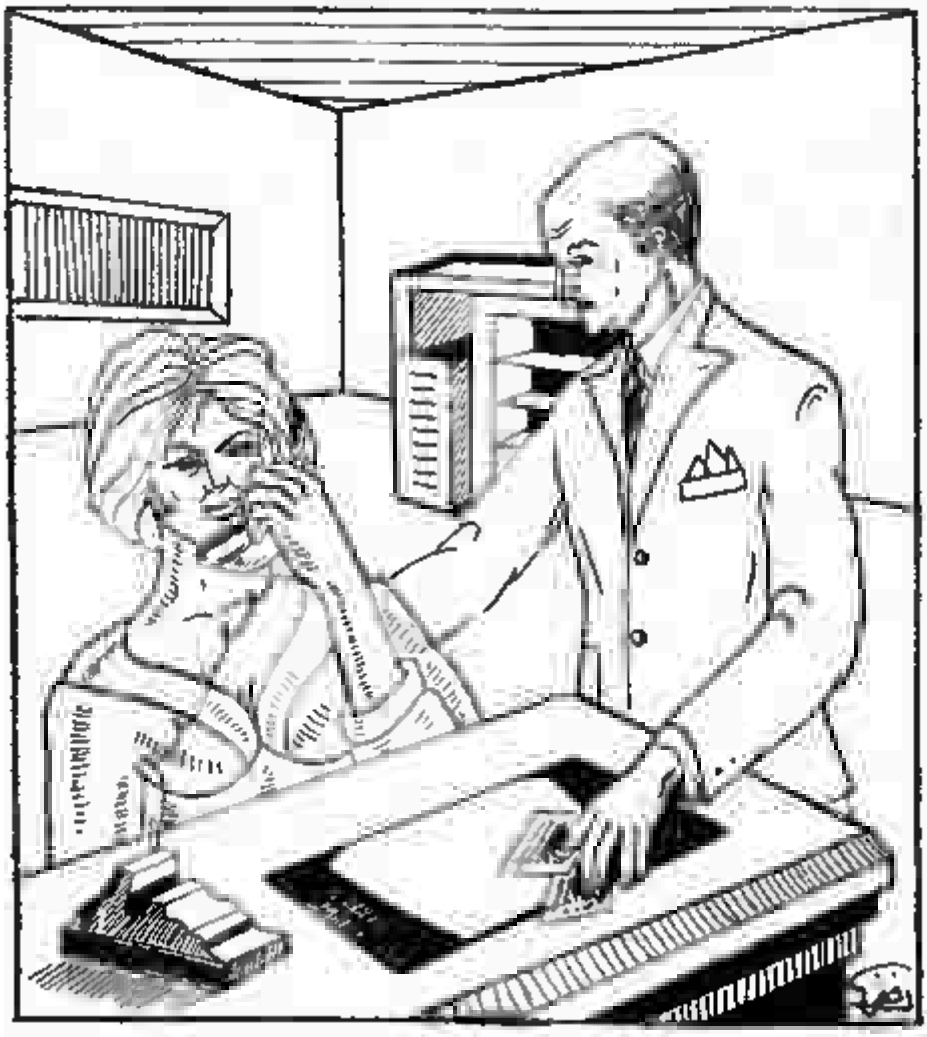

يسيل لهما اللعاب ـ ما أجمل أن تراقص هذا العصر وتحتويه بين ساعديك .. قل أن ترقص فتاة عشاء راقصا ـ

وطلب اليها أن تدع الماء يتهمس مقترحا ، وراقبها وهي منحنية على أوراقها تكتب بيد وحدها متكيء على راحة يدها الاخرى، وابتسامتها الوديعة تطفو على الجزء الظاهر من وجهها .

كيف يعاتبها .. تردد وحيرة ، ثم حط الى نجدته مثل يقول نار بالمدة الحسور .

وصمم أن يحرق تردده وصاح فجاة وما رايك يارجاء عندي تذكرتين لعشاء راقص ؟

ورفعت خدها عن راحة يدها .. وظهرت بقية الابتسامة .. ابتسامة

واسمه يصيح بالفرح ، وقالت له واصابعها على قرص التليفون

ـ اذا سمحت لحظة .. سأتصل بالبيت .

واحس أن راسه يلعب مع قرص التليفون .. كما أيقن أن سيهام لن تلقاه مرة اخرى يوقن الآن أن رجاء قبلت الدعوة ، وان الاتصال بالبيت لحرد شكلي ..

ونهض ، وصار خلفها وهي تواصل الحديث بعد أن تصنع السماعة ، سيطبع قبلة في شعرها .. فاز باللذة المحظور .

وبينما هو يتأهب لذلك فوجيء بها تهتف في التليفون

ـ ماذا تقول ما رأيك .. عندي بدكرتين لمشاء راقص .. هل تستطيع الحضور الآن لكي نذهب معا .. اني أستطيع أن أقبلهما .. انهما هدية .. من رئيسي .. وأنت أيضا يجب أن تشكره .

واعطت السماعة لأحمد وهي تقول

ـ صوت ابن خالتي .. وحطيبي .

وابتلع احمد القبلة التي تأهبت على شفتيه وهو يتحدث الى .. خطيبها .

وأثناء ذلك لمحها وهي تحاول اخفاء بعض الاوراق على مكتبها .. مرحى .. انها ليست كشوفات حسابات .

ورفع الدوسيه عن الورقة التي حاولت أن تخفيها .. واذا هي رسم كاريكاتوري له .

وقالت وهي تمسك راسها .. انها هوايتي .. كلما انتهيت من واجباتي .. وقد احببت دائما أن ارسمك .. مات أبي وأنا طفلة .. ولست أذكر وجهه إلا كتبي دائما تخيلت أنه كان يشبهك .

وسكت وهو يفحص الصورة .. انها أول مرة يرى فيها نفسه في رسم كاريكاتوري .. شعرات قليلة واقفة في رأسه .. حقيبة من الدهن تحت ذقنه .. كرة كبيرة منتفخة تحت صدره .

والقى التذكرتين على المكتب وانصرف متجهما ..

وفي الصباح عندما سبقت رائحة القهوة زوجته الى حجرة النوم كان ما يزال عابسا .

وعندما سألته فريدة عن سبب عبوسه أخرج الصورة من حيث كان يخفيها وقال لها

ـ هل يرضيك أن أرسم هكذا ؟

وتأملت الصورة وهو يراقبها .. وادهشه أن ملامحها تنطق بالرضا .. وغمغمت بصوت متمتم

ـ صورة جميلة .

ووجد نفسه يقول

ـ لو عرفت الثمن الذي دفعته ...

وقاطعته لا يهم .

ثم اصاخت وهي تردد بصرها بينه وبين الصورة وفي صوتها رهبة

ـ هذا أنت .. انت بالضبط .

وقبلته فجاة ..

وابتسم بعد القبلة أن الثمن .. لم يكن عاليا ..